

نريد وطناً لا عصفورية !

ادمون صعب

عن جريدة النهار ١/٩/٢٠٠٠

"انظروا الى المستقبل. يجب ان تعلموا ان كمال جنبلاط هو سبب الازمة في لبنان والمنطقة. لقد تآمر على امن لبنان وسوريا، ولو انه انتصر لما كان رحم احداً. انه يحاول الآن اعادة علاقته معنا، ولكننا نرفضها. لقد عزلناه واوجدنا كل الابواب بوجهه، فهل تريدون فتحها له من جديد؟ بوجود كمال جنبلاط لن يرتاح احد، لا لبنان، ولا الرئيس نفسه. جنبلاط قد انتهى. ويجب ان ينتهي".

حافظ الاسد) لفيؤاد بطرس موفداً للرئيس الياس سركيس في ١٥/١١/٧٦ قبيل تأليف حكومته الاولى).
كان رئيس الجمهورية عائداً لتوه من رياضة الغطس الصباحية، عندما دخلت عليه صحافية شابة، قريبة من اوساطه وافكاره، وبادرته بالسؤال: "فخامة الرئيس، الى اي حد انت ماروني قح، تصغي الى ما يقوله البطريرك الماروني سيّدك و"سيدنا"، كما قلت في بعبدات وانت تدلي بصوتك الاحد الماضي: "من اشترك باعك" و"لا تستمعوا الا لضميركم (...)"؟ ولماذا لم تحفظ من "الايمان" البطريركي الا هذه العبارة التي تتعلق بالرشوة وشراء الضمان في الدائرة التي ترشح فيها نجلك على قائمة وزير الداخلية، مع العلم ان هذه الدائرة هي الاقل تعرضاً للرشوة؟ اقول لماذا لم تحفظ من اقوال البطريرك سوى العبارة المذكورة وتجاهلت تحذيراته المتكررة والصادرة عن قلب محب لك ومخلص للبنان؟ فهو اول من نبّهك الى اخطار التقسيم الانتخابي المشوّه للارادة الشعبية والمؤسس قاعدة لتقرير نتائج الانتخابات قبل حصولها، فضلاً عن تدخل الاخوان السوريين في عملية تقسيم الدوائر. وهو صارحك غير مرة بأن المصلحة الوطنية تقضي باعتماد الدوائر الصغيرة لانها تأتي بمجلس يعكس حقيقة القاعدة الشعبية بتلاوينها المختلفة، وان على صعيد طائفي وحتى مذهبي، ذلك بأن التمثيل الحقيقي في بلد مثل لبنان يتألف من ١٨ عائلة روحية يجب ان يرسل الى مجلس النواب - ولا احد ينكر اننا في بلد طائفي ما دامت الطائفية السياسية لم تلغ والعلمانية شبه مستحيلة - الاقوياء والشرفاء والوادم والانقياء، اي افضل ما في الطوائف، لا اغناهم وان كانوا اميين، ولا الاكثرهم خضوعاً للخارج وتمسحاً على اعتابه.

واني لاذكر ضميرك هنا بالبيان الشهير لمجلس المطارنة الذي يترأسه البطريرك والذي هاجم الانتخابات المعلبة ونعى غياب الحرية وخصوصاً في تأليف اللوائح و"ضرورة الحصول على رضى الجهات المهيمنة والجمع بين الأضداد". وقيل ان الشعرة انقطعت من يومها بين بعيدا وبكركي، حتى جئت وفاجأت الناس

صبيحة الانتخاب بعبارة للبطيريك تتعلق بالكرامة الشخصية، وتجاهلت بقية العبارات التي نطقها
البطيريك وتتعلق بالحرية والاستقلال والسيادة والتي تقبّد بها الناخبون المتنبئون.
الرئيس مقاطعاً: ولكنني وفّرت الحرية للجميع يوم الانتخاب، ووفيت بوعدتي بإجراء انتخابات حرة
ونزيهة.

الصحافية: لقد حصل ذلك حقا يوم الانتخاب، وهو واجبك وواجب الدولة والحكومة والجيش وقوى الامن
والمسؤولين في اقليم الاقتراع، اضافة الى القضاة الذين أشرفوا على التدقيق في نتائج الفرز وأعدوا
النتائج. وهل تعتقد انه يجب تعليق وسام الاستحقاق المذهب على صدر كل موظف يقوم بواجبه الذي
يقبض راتبه من أجله مطلع كل شهر؟

الرئيس: لا أحد يستطيع ان ينكر ان الدولة هي التي انتصرت في الدورة الاولى من الانتخاب وليس من
يطلق الخطب لآخافة الناس بالرجوع الى الماضي"، كما قلت في مركز الاقتراع في بعبدات، وبعثت
بـ"رسالة" الى "من يعينهم الامر" ان "لا أحد كبير الا الوطن لبنان"، آملا في أن تكون وصلت واتعظ بها
من يجب.

الصحافية: لكنك فخامة الرئيس، منعنا من مقاطعتك لسؤالك عن تعني بكلامك. ولسؤالك ايضا عن
أسباب تجاهلك بقية أقوال البطيريك، وخصوصا ما قاله عندما بدأت الدعوات العاجلة ترد على كبار
المسؤولين، الحاليين والسابقين، في لبنان للتوجه الى دمشق حيث ينتظرهم الرئيس السوري الجديد بشار
الاسد، من ان لبنان لا يزال تحت الوصاية.

الرئيس لحدود: ربما لم تسنح لي فرصة الاطلاع على خطب البطيريك صفيير كلها، وانت تعرفين اني
لست من قارئ الصحف بحسب تربيته العسكرية وابتعادي عن السياسة.
الصحافية: ويا للأسف يا فخامة الرئيس، فلو كنت تخصص جزءا من فترة الصباح للاطلاع على
الصحف، وإن الصحف اللبنانية فقط كما كان يفعل الرئيسان الراحلان جمال عبد الناصر وحافظ الاسد،
لكننت غيرت رأيك في أمور كثيرة ولما كنت وصلت الى المأزق الذي أنت فيه...

الرئيس (مقاطعاً): من قال اني في مأزق الان. لا، انا في وضع استرخاء.

الصحافية: من ينظر الى وجهك في قلم الاقتراع ويصغي الى نبرتك - وقد منعنتي من مقاطعتك وطرح
اسئلة عليك - يلاحظ التوتر الذي ينتابك. ثم انك لا تستطيع ان تتجاهل المباراة التي حصلت بينك وبين
الوزير وليد جنبلاط في الشوف وعاليه حيث لم توفر الدولة - دولتك طبعاً - وسيلة الا واستعملتها
لاسقاط ما امكن من اعضاء لائحته، وهو هاجمك شخصياً. كذلك اتهمك قريبك نسيب لحدو بأن "الخبيط
كان في الخواصر"، بواسطة وزير الداخلية ميشال المر الذي وضعت ابنك تحت جناحيه ليصنع لك منه

نائباً ويعطيه من رصيده وبعضه لا يليق بابنك. وهذا ما لا تستطيع انكاره، فضلا عما حصل في الشمال وما ينتظر في بيروت في مواجهة لوائح الرئيس رفيق الحريري الذي يعتبر ان حربه ضدكم هي ثار لما فعلتموه به وبالذين ينتسبون اليه مما اضطره إلى وضع نفسه تحت الحماية السورية، تماما كما فعل الرئيس السابق الياس الهراوي بعيد فتح ملف النفط واحالة الوزير السابق شاهي بارسوميان على المحاكمة.

الرئيس: أوتظنين يا عزيزتي ان الرئيس الذي جاء باسم النظافة والشفافية والخضوع للقانون سيتساهل مع الذين سرقوا المال العام واهدروا موارد الدولة وصادروا المرافق العامة وحولوا الدولة مزرعة، واشلخوا الفساد انى حلوا؟ لا، لن يتساهل مع هؤلاء ولن يكون على الحياد، ايا يكن الثمن وستكونين شاهدة على ذلك.

الصحافية: امن اجل هذا الامر قلت في مركز الاقتراع "بعد التحرير سوف نطبّق خطاب القسم بحرفيته،لنبنى دولة المؤسسات".

الرئيس: هذا بالضبط. لقد اضعننا سنتين في مقاومة الاحتلال والآن بعد اندحاره لن يعود هناك سبب لعدم تطبيق خطاب القسم.

الصحافية: لكن خطاب القسم لم يبق منه شيء بعد الخيبات التي اصيب بها المواطنون من الحكومة التي شكّلتها في بداية عهدك وكادت ان توصل البلاد الى حال الافلاس، بعدما خنفت الاقتصاد، وضيقت على المعيشة وهشّلت المستثمرين.

الرئيس: انى اعترف بخطأى في هذا المجال، واتحمل المسؤولية عن حكومة التكنوقراط التي كادت ان تستنفد رصيدي، باستثناء الرئيس سليم الحص الذي لم اصادف في حياتي رجلا خلوقا وحكيما وصبورا ونظيف الكف مثله وانى اتمنى له النجاح في المعركة الشرسة غير المتكافئة التي يخوضها في بيروت ضد سلطتي المال والاعلام.

الصحافية: ولكن يبدو ان الرئيس الحص لن يكون على الحياد في مواجهة اخصامه - بل خصمه المعروف - على ما قال، فكيف ستستطيع اعادة جمع الشمل بعد هذه المعركة التي خاضتها الدولة في الجبل، وانت متهم شخصيا بانك كنت تقف وراء الاجهزة، وكذلك في الشمال، ثم في بيروت حتى لا نتحدث عن الجنوب؟

الرئيس: لقد اجرينا "بوانتاجا" نشرته اول من امس "الوكالة الوطنية للاعلام"، وجاء فيه ان المعارضة تراجعت، رغم التطويل والتزمير والصراخ، ولم تتقدم في الجبل كما في الشمال.

الصحافية: ولكنك مضطر الى التعامل مع نتائج الانتخابات، وها هي الاصوات بدأت تطرح اسم الرئيس رفيق الحريري مرشحا محتملا لرئاسة الحكومة، فيرد عليها عراب العهد ونسيك الوزير ميشال المر بان لا قيمة للاستشارات النيابية لاختيار رئيس الحكومة، لان الكلمة الاخيرة تبقى لسوريا.
الرئيس: ان هذا الامر سابق لاوانه.

الصحافية: الا تعتقد ان مثل هذا الكلام يشكّل تحريضا للنواب، وخصوصا نواب المعارضة، عليك؟
الرئيس: سامح الله الوزير المر، وهذه ليست "مأثرته" الاولى، وخصوصا انه يظن انه يخدمني في هذا الامر.

الصحافية: انه في الحقيقة يستبق الامور ويحركك من حيث لا تدري، بل يظهر انك لا تحل ولا تربط في هذا الموضوع. بل اكثر من ذلك هو يوحى، اذا ما نظرنا الى ما يجري منذ ايام على طريق دمشق، ان السّباح يكاد يغرق وان اصوات الاستغاثة وصلت الى دمشق التي سارعت الى توجيه دعوات الى فريق كبير من المسؤولين الحاليين والسابقين بدءا بقائد الجيش ومرورا برئيس مجلس النواب ورئيس الوزراء، ثم النواب البارزين والوزراء البارزين كذلك. وكلهم كانوا يعرّجون في طريق العودة على اللواء الركن غازي كنعان في عنجر مما يوحي ان ثمة توجهها جديدا للقيادة السورية يجب ان يبلغ الى الجميع من النبع مباشرة.

الا تعتقد ان في هذا الامر تجاهلا لك انت رئيس الجمهورية، ام انك فقدت صفة الحكم وكُنْ اخصامك، فسارعت دمشق الى التدخل؟

الرئيس: لا اعتقد ان هذا التحليل صحيح، فالدولة لا تزال هي الاقوى، ولن تسمح بان يكون هناك من هو اقوى منها في عهد اميل لحود الذي استرجع ١٧ مليون متر مربع كانت مغتصبة بايدي الاسرائيليين في الجنوب. واميل لحود الذي عجز العدو عن كسره لن يستطيع احد حرفه عن الهدف الذي حدّده لنفسه في خطاب القسم.

وكان الرئيس طلب عدم ازعاجه بالتلفونات، ولكن جاء من يبلغه ان موعد الاستقبالات قد حان، فبادرت الصحافية الى طرح سؤال اخير عليه قبل ان تتصرف: "هل لا تزال تذكر قول الصبية التي "هجمت" عليك لدى توجهك للغطس ذات صباح في نادي السيارات والسياحة: "قخامة الرئيس، انك تغطس وتعموم فيما البلاد تغرق ولا من ينتشلها من الغرق"، وقد سارع مرافقوك الى ابعادها عنك بدلا من ان تطلب منهم ان يقربوها منك لتصغي اليها، فلربما كان لديها اكثر من ذلك لنقله لك، خصوصا وانت القائل في خطاب القسم: "ان الناس يريدون التغيير، ولديهم اسباب معروفة ومحقة (...). انهم يريدون منا، نحن الحكام والمسؤولين، ان نحترم تمثيلهم في كل ما نقول، وقولنا مسؤول، وان نجسّد ذلك في كل ما نفعل، وفعّلنا

مسؤولية (...). واني اقول للناس اني لا ادعي ان لي عصا سحرية تلبّي الآمال بين ليلة وضحاها، ولكن لدي النية والارادة، نعم لدي النية والارادة، ويدي ممدوة للجميع في كل ما هو خير وصواب وعدل". الصحافية: ولكن، فخامة الرئيس، العصا السحرية التي كان يفترض ان توفرها لك الحكومة تبين انها خشبية، هشة. ورغم ذلك امسكت بها وضربت بغير هوادة، واحيانا بغير هداية، فانكسرت العصا ولم ترضِ انت الناس، بل زادوا تعاسة وفقراء، وقهرا، واعتلّ الاقتصاد، وزادت الهجرة، وهشل اصحاب الرساميل، وتزايد الاعداء، وتشتت الشمل. وقد لا يستقيم الامر بغير مكنسة من شجر البلان الشهير في الجبال، تتظّف بها الطريق التي سيسلكها مشروع خطاب القسم، من الفاشلين والاغبياء وقصيري النظر والحاquدين و"العلاء" و"المرتزقة" الذين وثقت بهم فخذلوك واوصلوك الى المأزق الذي افقدك صفة الحكم يلجأ اليه المتخاصمون لتصلح ما بينهم وتعديل، فاذا بهم يتوجهون الى دمشق بشار الاسد - مدعوين او مستدعين لا فرق لان العجلة مطلوبة بالحاح - وهم يمرون من امام شباكك في الذهاب والإياب بطريق عنجر مزودين التعليمات والايضاحات... ولم نجد بينهم رافضاً واحداً او ممانعاً واحداً للنتزّه على ضفاف بردى.

انك الآن في مهب الفرص الضائعة، كان الله في عونك.

..وخرجت الصحافية الشابة، صديقة العائلة، وقلبها على الرئيس وهي تتأمل في ما قاله النائب وليد جنبلاط غداة فوزه الساحق في الشوف وعاليه "ان الشعب هو الذي انتصر على التعليب والتدخل ولجّى نداء "الكلمة الحرة"، وان "صحوة ضمير" جعلته ينقلب على الماضي ويعترف بان ضميره قاده الى الرفض، وانه للمرة الاولى يشعر بانه حر وينتخب بحرية بينما كان في الماضي يصوت فحسب!

وقد تمننت صحافيتنا الشابة، في هذا الحوار الذي نسجناه من عالم الخيال - الواقعي، ان يفحص الرئيس ضميره ويستتبط مخرجا من المأزق بصفته واحدا من القادة الذين قال عنهم الاستاذ غسان تويني امس، وهو يذكر بعامية انطلياس - انهم "يستطلعون الحكمة الكامنة في نفوس الناس ليؤكدوا التزام الحياة الواحدة، والدفاع عن الحريات، كل الحريات، حرية الانسان، وحرية الوطن الصغير الباحث في غاب الصراعات الامبراطورية التي تتناثش دنيا العرب، عن نور للبنان".

والفرصة لم تفت لانتشال الغريق واستشراف "الحكمة المنقذة"، واذا كان لبنان تحول في لحظة ما الى ما يشبه العصفورية، فان دواء الجنون ليس بالطبع سورياً، وخصوصاً اننا جربنا كل انواع الطب الا الطب اللبناني، لذلك، ازددنا جنونا !